

## الجودة في منظومة التعليم العالي

قُدّمت في اجتماع الخبراء الذي نظّمته إيسيسكو  
"إنشاء مجال التعليم العالي في العالم الإسلامي"

جورج ن. نحّاس  
بيروت، ٢٠ - ٢٣ حزيران ٢٠١١

## الجودة في منظومة التعليم العالي

١ - المدخل

أ - علاقة الموضوع بهدف المؤتمر

ليس إنشاء مجال للتعليم العالي مجرد عملية إدارية تقوم على قرارات رسمية. التجربة الأوروبية واضحة جداً. فإنشاء هذا المجال عملية تربوية تعتمد على سيرورة طويلة الأمد من شأنها أن تخلق الأطر، والمرجعيات، والتوجهات الأكاديمية التي تؤمن تراص هذا المجال داخلياً ومناعته واحترامه خارجياً.

لذلك، مع أهمية التذكير الدائم بالوجه النظري لهذه العملية، لا بد من وضع ثوابت معيارية تسمح بنشيت ركائز هذا المجال الجديد. وأهم هذه الثوابت عملية ضمان الجودة لأنها المقومة الأساس التي تسمح بوضع هذا المجال دولياً، على خريطة التعليم العالي المتمايز.

ب - الأسس الثلاثة لضمان جودة مستدام

يصبو عنوان المؤتمر، وبالأخص عنوان مداخلتي، إلى خلق مناخ جديد من شأنه إعطاء التعليم العالي في العالم الإسلامي مقومات حضور فعال في سياق تطوّر العلوم والحضارة المواكبة لها. برأيي، يرتكز هذا الأمر على جملة من الأسس المبدئية التي من شأنها تأمين قيام ثقافة ضمان الجودة واستدامتها، أعني:

- الحرية الأكاديمية كفضاء أكاديمي حتمي
- بناء الإنسان وتنمية المجتمع
- التواصل الثقافي والحضاري.

ج - مخطّط العرض

لن أدخل هنا في تفاصيل ترد في كل المنشورات التي تتعاطى وإشكاليات ضمان الجودة، لأن هذا الترداد لا يؤمن أية إضافة مفيدة على المعلومات التي يملكها كل من يهتم بهذا الشأن. لذلك استحسن أن أعتمد لمداخلتي مخطّطاً يربط معايير ضمان الجودة بالمنطلقات التي يجب أن يبني

عليها مستقبلياً، برأيي، أيّ تعليمٍ عالٍ. ليس ضمان الجودة هدفاً بحد ذاته، بل هو ضرورة لصون مستوى التعليم العالي. لذلك سأتطرق في مداخلتني إلى النقاط التالية:

- أهداف التعليم العالي
- مناخات التعليم العالي
- مخرجات التعليم العالي
- الحاجة التعلّميّة في التعليم العالي
- حوكمة التعليم العالي

وأنتهي بربط هذه الأمور كلّها بمنهجية مستقبلية واعدة لضمان الجودة.

## ٢ - أهداف التعليم العالي

للهولة الأولى، يمكن أن يبدو الأمر بديهياً لأن الأدبيات النظرية في هذا الشأن متشابهة. لكن، إذا أردنا أن ننشئ مجالاً جديداً للتعليم العالي اليوم، لا بد من وضع أهداف لأبعاد خاصة تكون هي نفسها معايير لضمان الجودة واستدامتها. لذا أود هنا أن أشدد على ما يلي:

### أ - التعليم العالي والمستقبل

التعليم العالي هو تحديداً قفزة نحو المستقبل. كلّ تعليم عال يبقى على مستوى نقل المعلومة ولا يسهّل عملية اقتناء المعرفة وإنتاجها، هو تعليم ثانوي المنحى.

### ب - التعليم العالي والخصوصية المجتمعية

التعليم العالي هو أداة ارتقاءٍ مجتمعيّ ليس للأفراد فحسب بل للمجموعات أيضاً. كلّ تعليم عال لا يضع لنفسه آفاقاً مجتمعية طموحة يبقى تعليمًا تقنياً بدائياً.

### ج - التعليم العالي والتواصل

المتوقّع من التعليم العالي أن يتوجّه نحو الطاقات الفكرية العليا، والتي تعتمد على التواصل لمدّ الجسور بين مراكز إنتاج المعرفة في العالم. كلّ تعليم عال ينغلق على نفسه يضع مجتمعه خارج إمكانية التفاعل مع الغير والتأثير على التطور الحضاري.

لذلك، ينتج تأمين استدامة جودة التعليم العالي عن ارتباط أهداف هذا التعليم بشكل واضح برؤية بعيدة المدى للعملية الحضارية النوعية التي تجعله مختلفًا عن باقي وسائل التأهيل.

### ٣ - مناخات التعليم العالي

إذا ما اعتبرنا أنه من المسلم به أن التعليم العالي يقوم على مبدأ التعلّم وليس التلقين، فهذا لا يمكن أن يتمّ إلا في مناخات تسمح لتعليم كهذا أن يقوم. وهذه المناخات الأساسية هي:

أ - احترام خصوصية الأشخاص والعمل على تنمية شخصياتهم

جعل الله سبحانه وتعالى، لكل مخلوق خصوصيته، ودور التأهيل بشكل عام، والتعليم العالي بشكل خاص، أن ينمي هذه الخصوصية فتتفتح شخصية المتعلّم إلى أقصى حدود. كل تعليم عال يقوم على التنميط لن يؤهل قيادات فذة للمجتمع.

ب - احترام الحريات الأكاديمية

طالما أن التعليم العالي يضع نصب أعينه موضوع الرقي بالمجتمعات وتنمية الإنسان، فلا بدّ له من أن يفسح المجال واسعًا للإبداع والتميز. لا يتم هذان الأمران إلا في جو يحترم بشكل مطلق الحريات الأكاديمية تفكيرًا، وتعبيرًا. كلّ تعليم عال لا يخلق هذا الجو الضامن للحركة والدينامية يحكم على نفسه بالوقوع والترداد.

ج - احترام مبدأ الاحتكام إلى الأثراب

الحرية عملية مسؤولة، وإلا أدت إلى الفوضى. لذلك يقوم التعليم العالي على مراقبة الذات كأنظومة متكاملة تحتكم إلى الموضوعية، والعلمية، واحترام حرية المعتقد. لذلك ينتهج التعليم العالي منهجية الاحتكام إلى الأثراب، داخليًا وخارجيًا، في مجالي التدقيق والتقييم.

لذلك، تفترض استدامة جودة التعليم العالي تأمين مناخات في التعليم العالي تسمح بتنمية الطاقات الإبداعية في جوّ من الحرية والمسؤولية، قائم على احترام مبدئي الموضوعية والمحاسبة.

## ٤ - مخرجات التعليم العالي

تطوّر التعليم العالي ولا يزال، وهو يُعتَبَر عاملاً أساسياً في تطوّر المجتمعات، ما يؤدّي إلى ضرورة التأكيد على نوعية مُنتَج هذا التعليم والدور الذي يمكن أن يلعبه في مجتمعه. من هنا أن مخرجات التعليم العالي هي غاية في الأهمية بحد ذاتها، وتؤثّر بالعملية التأهيلية التي تسبقها بشكل غير مباشر.

أ - الأهلية العلمية

يطمح التعليم العالي إلى تخريج أشخاص يمتلكون المعرفة ولهم القدرة على استعمالها في وضعيات مستجدة. كلّ تعليم عال يحصر نفسه بترداد المعلومات يحرم الأجيال الصاعدة من إمكانية مواكبة العلوم مواكبة فعّالة، ويؤدّي من حيث لا يدري إلى نوع جديد من التخلف القائم على استيراد العلم ليس إلا، والبقاء على هامش الإنتاج المعرفي.

ب - الأهلية الفكرية

يطمح التعليم العالي إلى تخريج أشخاص لا يقتصر همّهم المعرفي على نطاق اختصاصهم الضيق إذ أن التطوّر التواصلي والتقني في العالم قد اختصر المسافات. كلّ تعليم عال لا يسعى إلى التأهيل الفكري إلى جانب التأهيل العلمي، يحرم المواطن من إمكانية المساهمة في صياغة حضارة المستقبل العالمية، ويحكم على المجتمع بانغلاق مميت.

ج - الأهلية النقدية

يطمح التعليم العالي إلى تخريج أشخاص يمتلكون الفكر النقدي حتى يكونوا قادرين على الوقوف من كمّ المعلومات الذي يوضع بمتناولهم كل يوم، موقفاً عقلاً راجحاً. كلّ تعليم عال لا يؤهّل على الفكر النقدي لن يُنتج إلا استنساخاً تاريخياً لا يسمح بتطوّر الشعوب والمجتمعات بل يبقّيها في تخلف عمليّ سهّل استغلالها.

لذلك، تقوم استدامة جودة التعليم العالي على التأكّد من وجود السبل والأطر التي تعطي الطالب الكفايات الضرورية ليكون عامل تغيير مجتمعي، قادراً على إنتاج المعرفة وعلى التواصل الحضاري.

## ٥ - النهاية التعلّمية في التعليم العالي

أدى تطوّر الأبحاث التربويّة في ربيع قرن مضى إلى اعتماد مقاربات جديدة وطموحة في مجال النهاية التربويّة المُتَّبَعَة في التعليم العالي في عدد من البلدان المتقدّمة. من شأن هذه النهاية ليس فقط تغيير تقنيات التعليم المستعملة بل، وبشكل خاص، تبديل الذهنيات التي تحكم هذا التعليم.

أ - ازدواجيّة التنظير والتطبيق

برهنت الدراسات في مجال علم النفس المعرفي عن العلاقة الوثيقة بين التطبيق والتنظير على أساس أن الأول هو السابق وليس العكس. كلّ تعليم عال يستند إلى الكمّ النظري على حساب التزامن بين العمل الوضعي والاستنتاج المعرفي لن يؤدي إلى اكتساب للمعرفة بل إلى تخزين للمعلومات.

ب - اكتساب المعرفة وإنتاجها

تفيد دراسة واقع التعليم العالي في العالم أنه من الأفضل أن يتمّ التدرّب على إنتاج المعرفة باكتساب المهارات البحثيّة، والفكر العلمي المساند لها، في فترة مُبَكِّرة من التأهيل الجامعي. كلّ تعليم عال لا يتطلّب اكتساب هذه المهارات منذ سنوات الدراسة الأولى يفوّت على الطلاب فرص الإبداع العلمي.

ج - مَوْضَعَة عمليّة التأهيل

لا يمكن أن يتمّ اكتساب المعرفة إلا في وضعيّات معيوشة، ومن المتوقع أن ترتبط عمليّة التعلّم بالتأهيل على حلّ مسائل، وتنفيذ مشاريع مرتبطة بشكل مباشر بالواقع والمحيط. كلّ تعليم عال لا يتموضع مجتمعيًا، إن في الأبحاث، أو في التأهيل الأساسي، يجعل الخريجين في غربة عن واقعهم ويسهّل استلابهم.

لذلك، تتطلّب استدامة جودة التعليم العالي اتباع نهافة تعلّميّة ترسخ عمليّة التأهيل في الواقع المجتمعي من جهة، وبمستلزمات تطوّر المنهجيات التربويّة المؤدّية إلى اكتساب المعرفة وإنتاجها في آن.

## ٦ - حوكمة التعليم العالي

مؤسسات التعليم العالي مؤسسات تربويّة، وبحكم هذه الخصوصيّة فلا بدّ لحوكمتها من التمتع بأنظمة خاصة بها، تمكنها من أداء واجبها بشكل جيّد،

وتؤمّن حسن مراقبتها، فتقيّمها، فمحاسبتها. تستند هذه الأمور إلى أسس تحكم هذه الحوكمة داخليًا وخارجيًا.

أ - الشراكة الأكاديمية

تتميز المؤسسات التربوية بالبُعد الإنساني لنشاطها لأنه يطوق إلى تأهيل الأفراد للمستقبل. وتقوم خصوصية مؤسسات التعليم على أنها الحلقة الأخيرة قبل خروج هؤلاء الأفراد إلى المجتمع. لذلك فلا بد من جعل الشراكة أسلوب حياة في هذه المؤسسات وذلك على كافة المستويات. كلّ تعليم عال يحصر الحوكمة بترتيب هرمي غير تشاوري يقود حتمًا إلى وجود فكر وظيفي غير مسؤول وغير منتج.

ب - الأولويات التنظيمية

يرتبط سلّم الأولويات في أية مؤسسة بهويتها. متى أوضحت مؤسسة التعليم العالي هذه الهوية، وضعت لنفسها سلّم الأولويات الذي يتناسب مع هذه الرؤية، فتقوم محاسبتها ومحاسبة القيميين عليها على مدى احترامهم لهذه الأولويات. كلّ مؤسسة تعليم عال لا تحترم هذه المقاربة تضع نفسها بمصفّ الشركات الإنتاجية وتنزع عن نفسها، عمليًا، الصفة التربوية.

ج - المعايير الموضوعية

لأن التعليم العالي مسعى علميّ بامتياز، فلا بد له من اعتماد معايير موضوعية لمراقبته وتقييمه، وهذا يبدأ باعتبار التقييم الذاتي جزأً لا يتجزأً من العملية التربوية وليس من العملية الإدارية. كل تعليم عال، لا يحتكم إلى معايير موضوعية لتقييم ذاته ومؤسساته، يقع حتمًا في الرتبة، والترداد.

لذلك، تتطلب استدامة جودة التعليم العالي اعتماد أسس حوكمة تقوم على خصوصية التعليم العالي من حيث الرؤية، والدور، والأهداف، والموضوعية وروح الشراكة .

٧ - منهجية مستقبلية للتعليم العالي وضمان جودته

في النهاية، وكمحصلة لما سبق، أورد هنا بعض الاستنتاجات التي من شأنها أن تشكل مرجعية عملية لما يمكن أن يقوم عليه مستقبل تعليم عال جيّد، يسمح للعالم الإسلامي بلعب دور فعّال في السياق الحضاري. أما كلمة "جودة" فستعني في هذا السياق كل ما يترتب على الاستنتاجات الخمسة التي وردت سابقًا.

- أ - لا تقوم الجودة في فراغ، بل تقوم في وضعيات محددة تحكمها الظروف الاجتماعية، والسياسية، والثقافية.
- ب - ليست الجودة مجموعة معايير كمية تُفرض على المجتمعات من الخارج، بل هي نتاج قناعات داخلية، تعبّر عن نفسها موضوعياً بمجموعة خيارات من شأنها أن ترفع من مستوى الخدمة المقدّمة للمجتمع.
- ج - الجودة محرّك مجتمعيّ لأن من شأن اعتمادها كهدف من قبل المجتمع أن يُدخِل إلى حيّز التداول ثقافة تقوم على الشراكة، والموضوعية، والرقابة الدائمة، والاحتكام إلى الأتراب.
- د - الجودة عامل تغيير نوعيّ في المجتمع التربويّ لأن من شأنها أن تبني الأفراد على الفكر النقدي، وعلى التواصل، وعلى التمييز بين تكديس المعلومات واقتناء المعرفة، وعلى المساهمة في الإنتاج البحثي، وعلى التواضع العلمي.
- هـ - الجودة والحرية توأمان، لأن الجودة وليدة مناخ يسمح لطاقت الإنسان أن تعبّر عن نفسها بشكل كامل. وهذا يعني أيضاً أن الجودة ترتبط ممارسة الحرية بالمسؤولية لأن المحاسبة الموضوعية جزء لا يتجزأ من ثقافتها (أي الجودة).
- و - الجودة عامل انفتاح ثقافي، لأنها تؤمن بأهمية التواصل بين الشعوب لتعميم الخير، والخبرات، والمكتسبات العلمية على أنواعها، في عالم ضاقت حدوده بسبب التطور التقني.
- ز - الجودة ثقافة حيّة، على المجتمع الجامعي أن يُطلّقها في الناشئة لتترسخ في الأوطان والمجتمعات من أجل رقيّها في أجواء سلام، ومساواة، ومحبة.
- أما المعايير الموضوعية التي لا بد من وضعها، فلا قيمة لها إلا بمقدار ما تعبّر عن القناعة بما سبق، لأن لهذه القناعة أن تؤمّن استدامتها من جهة، وتصون مستقبل التعليم العالي المتميز. والسلام.